



المتلقي في بلاغة الخداع:
«البلاغة السفسطائية أنموذجا»

خيرة بن علوة
الجزائر

المتلقي في بلاغة الخداع: "البلاغة السفسطائية أنموذجاً"

خيرة بن علوة / الجزائر

الملخص: إنّ نظرة إلى تاريخيّة البلاغة اليونانية عن كثب تجعلنا نتبصّرُها أحيانا إقناعا، وأخرى قناعا يتلبّس خداعا، وثالثة إمتاعا؛ وفي كلّ مظهر نجد المتلقي يتلوّن بصيغة يضعه هذا المظهر وخصوصياته في إطارها. وحين نركّز على مظهر "الخداع" للبلاغة الغربية تحديدا في بداياتها، نقف مليا عند الفكر السفسطائيّ _ أو عند البلاغة السفسطائيّة بالمعنى الدقيق _ التي تبنت هذا المظهر لحاجة في نفس أصحابها اقتضتها طبيعة الأفكار التي حاولت الترويج لها، والتكسّب من ورائها.

ولعلنا من خلال هذا المقال الموجز والمركّز الذي يقوم على بيان موضعية المتلقي في بلاغة الخداع، وعند السفسطائيين تحديدا، نستبين ظاهر هذا الطرف وباطنه في اعتداد هؤلاء؛ فلقد بدأ تفكيرهم ينصب على الإنسان تحديدا ومشكلاته، بدل الوجود وماورائياته، فكان الأمر ممهدا لأن يحتلّ المتلقي بدهيا مساحة هامّة في بلاغتهم؛ لأنه أساس نجاح أفكارهم ورواجها، باعتبار هدفهم دائرا حول نجاح الخطيب في التأثير على الرأي العام والوصول إلى السلطة.

واعتمادا على ذلك، نجد الجماعة تهتمّ بالمتلقي من طريق يضمن المصلحة الخاصة للخطيب، ويسخر هذا الطرف له كأداة ووسيلة مساعدة، من خلال عمليات تمويه واستهواء وتحايل يضمن تعييبه، وإدخاله في دوامة وهميّة تشعره بأن فائدته ومصلحته هي المقصود، والهدف المنشود. في حين أنّ الحقيقة لا تعكس ذلك، وسئل في فلاسفة كثيرين يحملون على طريقة هذه الجماعة في التعامل مع المواقف والأشخاص، ويحاولون توعية المجتمع بخطورة أفكارها، والغلط في أساليبها؛ إذ الهدف من البلاغة في أن تكون أكثر تنويرا للمتلقي من خلال بيان صور الحق والجمال والخير والفضائل الأخرى بأسلوب مقنع واضح، لا أن تقوم على الإقناع كهدف واحد وحيد، لا يحمل في طياته شيئا من الحق أو الحقيقة غير الزيف والغلط الذي يصير المتلقي مستغفلا ساذجا.

الكلمات المفتاحية: المتلقي - السفسطائيون - الخداع - البلاغة - الجماليات اللغوية - الإقناع - الخطابة - الفلسفة.

The Receiver in the Rhetoric of Trickery: The case of Sophistical Rhetoric

Khaira Benalloua

University of Relizane, Algeria

E-mail: khaira_ben@yahoo.fr

Received: 16 Sep. 2013; Revised: 9 Oct.-20 Nov. 2013; Accepted: 20 Dec. 2013

Published online: 1 Jan 2014

Abstract: There is no doubt that Ancient Rhetoric, based on philosophical concepts, has made a profound impact on rhetoricians of Ancient Greece. Evidence of such an impact can be found in Plato's and Aristotle's rhetorical devices and theories. However, the emergence of the Sophistical philosophy has had a bigger influence and provoked an irreversible change in rhetoric as it totally differs from its predecessor in terms of ideas, style and even objectives.

Indeed, the Sophists had a typical mode of persuasion commonly known as the Oratorical Style. Such a style can be defined as a "Trickery" that is meant to transmit wrong and distorted ideas under the guise of art. This explains why they used to use very beautiful forms of figurative language.

Obviously the Sophists' initial aim was not to illuminate the receivers' minds by showing them the real truth about the universe; on the contrary, all they ever wanted was to gain popularity by earning the receivers' trust, who was supposed to naively believe in the nobility of their intentions, while in fact gaining power was their main target.

For more details about the evolution of the sophist rhetoric, we will address in our humble work the following issues: What are the main tenets of Greek Rhetoric? What goals do they fulfil? How was this latter presented to the receiver? What role does it attribute to him? What differences characterize the Sophist rhetoric from its remaining counterparts? Does it treat the receiver in the same way as in other types of rhetoric? If not so, how was he treated? What ways of address does it use with its receivers? And were they approved and accepted by Athenians in general?

Keywords: Receiver, rhetoric, figurative language, persuasion, oratory, philosophy.

المتلقي في بلاغة الخداع: "البلاغة السفسطائية أمودجا"

خيرة بن علوة / الجزائر

تمهيد:

لم يكن الطرف الثالث من العملية التواصلية عامة والإبداعية خاصة، بخافٍ على الدراسات البلاغية الغربية منذ النشأة الأولى؛ فلقد تنزّل في منازل متعدّدة ومختلفة الزوايا في كلّ صورة من صور البلاغة، وفي كل مرحلة من مراحلها. وإنه مما لا يخفى علينا أنّ البلاغة تدرّجت عبر تاريخها _ وما تزال إلى الآن _ في صيغ كثيرة جعلتها تتظر في كل صيغة إلى هذا الطرف الذي يُصطلح عليه بالمتلقي نظرة تختلف عن النظرة التي تتبناها في الصيغة الأخرى.

وإطالة على تاريخية هذه البلاغة عن كذب جعلنا نتبصرها أحياناً إقناعاً، وأخرى قناعاً يتلبس خداعاً، وثالثة إمتاعاً؛ وفي كلّ مظهر نجد المتلقي يتلوّن بصيغة يضعه هذا المظهر وخصوصياته في إطارها.

وحين نركّز على مظهر "الخداع" للبلاغة الغربية تحديداً في بداياتها، نقف ملياً عند الفكر السفسطائي _ أو بالمعنى الدقيق عند البلاغة السفسطائية _ التي تبنت هذا المظهر، ونحتّ هذا المنحى لحاجة في نفس أصحابها اقتضتها طبيعة الأفكار التي حاولت الترويج لها، والتكسب من ورائها.

ولعلنا من خلال هذا المقال الموجز والمركّز الذي يقوم على بيان موضعية المتلقي في بلاغة الخداع، وعند السفسطائيين تحديداً، نريد أن

نستبين ظاهر هذا الطرف وباطنه في تصوّر هذه الجماعة؛ فلقد بدأ تفكيرهم ينصب على الإنسان تحديداً ومشكلاته، بدل الوجود وماورائياته، فكان الأمر ممهداً لأن يحتلّ المتلقي _ بدهياً _ مساحة هامة في بلاغتهم، لأنه أساس نجاح أفكارهم ورواجها، باعتبار هدفهم دائراً حول نجاح الخطيب في التأثير على الرأي العام والوصول إلى السلطة.

واعتماداً على ذلك، نجد الجماعة تهتمّ بالمتلقي من طريقٍ يضمن المصلحة الخاصة للخطيب، ويسخر المتلقي له أداةً ووسيلة مساعدة، من خلال عمليات تمويه واستهواء وتحايل تضمن تغييب هذا الطرف المتلقي فكرياً، وإدخاله في دوامة وهمية تشعره بأن فائدته ومصالحته هي المقصود، والهدف المنشود.

لذلك، فإننا سنلقي فلاسفة كثيرين يحملون على هذه الجماعة وعلى طريقتها في التعامل مع المواقف والأشخاص، ويحاولون توعية المجتمع بخطورة أفكارها، والغلط في أساليبها، كما فعل أفلاطون الذي أشار إلى أنّ الهدف من البلاغة أن تكون أكثر تنويراً للمتلقي في بيان صور الحق والجمال والخير والفضائل الأخرى من خلال أسلوب مقنع واضح؛ بينما وجد أن بلاغة السفسطائيين لا تهدف إلى شيء من ذلك، بل تقوم على الإقناع كهدف واحد وحيد، ولا تحمل في طياتها شيئاً من الحق أو الحقيقة غير الزيف

أرسطو.⁽¹⁾ فلفد ساد بلادَ اليونان جوّ ديمقراطيّ جعل منها دولة تأخذ بعين الاعتبار كلّ فرد من أفرادها يسكن رقعة من أرضها، والحال أنها كانت تتمتع بطبقة مميّزة من حيث العلم والثقافة والحكمة السياسية.

ولما شعت أنوار العلم والفلسفة، وازدانت أثينا وغيرها بالعلماء والفلاسفة والشعراء والفنانين، وقويت الديمقراطية في جميع المدن وتنافس الأفراد وتطاحت الأحزاب، وكثر النزاع والتقاضي أمام المحاكم الشعبية، شاع الجدل السياسي والقضائي؛ فاشتدت الحاجة إلى تعلم الخطابة⁽²⁾، التي هي في الأصل "كل كلام يرسله طرف إلى طرف آخر من أجل التأثير والإقناع."⁽³⁾ وذلك في سعي منهم للوصول إلى الحكم بعد الحصول على تأييد الجمهور (المتلقي) عندما يقتنع بأرائهم وأفكارهم.

2_ من الإقناع وسيلة في بلاغة الفلاسفة، إلى الإقناع هدفا في بلاغة السفسطائيين:

لقد كانت جماعة السفسطائيين من أبرز الأطراف المساهمة في تطور الفكر اليوناني وإضاءة بعض جوانبه بصورة تختلف عن الإسهامات التي جادت بها قرائح الفلاسفة والمفكرين السابقين لهم، أو المتأخرين عنهم.

ونحن هنا بصدد حصر الحديث عن هذه الجماعة في الزوايا البلاغية تحديداً، لا الفكرية المتعلقة بالأراء والمضامين التي حاولت تمريرها إلى المتلقين، وحملهم على اعتناقها. ذلك أنّ الجوانب المضمونية تدخل بنا في متهات فلسفية، ومجادلات عقيمة لا تقيد درسنا الذي نحن بصدده بأي حال من الأحوال؛ بل إننا في

والغلط، مما يجعل المتلقي في بلاغتها مستغفلاً ساذجاً.

وعليه؛ فإنّ هذا المقال سينهض بالبحث في التساؤلات الآتية تحديداً: ماهو قوام البلاغة اليونانية؟ وماهي وسيلتها وغايتها، وما موقع المتلقي على مستواها، ماهي صورها التي جاءت عليها والتي بوأت المتلقي مقاعد شتى كلّ صورة حسب طبيعتها ونظرتها؟ ما محلّ البلاغة السفسطائية من البلاغة اليونانية عامة، وماهي الاختلافات التي ميّزتها عن البلاغات الأخرى، هل المتلقي لدى السفسطائيين هو نفسه ذلك الذي تتوجّه إليه تلك البلاغات، وإن لم يكن الأمر كذلك: فما حقيقة هذا الطرف في بلاغة هؤلاء، وكيف استعملوا لغة التخاطب معه وما أشكالها، وهل كانت طريقتهم محمودة الجانب ومتقبّلة في أوساط أثينا كلها بجميع مستويات أفرادها؟

1_ عنصر الإقناع في بلاغة اليونان:

لقد عرف الإقناع والتأثير في المتلقي تاريخاً طويلاً في حياة الإنسان، وتجلّى كثيراً في المجالات الثقافية والفكرية، كما خالطته بصمات إبداعية تبوّأت البلاغة فيها بكل وسائلها وطرائقها مقاما عليّاً، حيث تكشف لنا الدراسات النقدية عن الدور الكبير الذي لعبته هذه البلاغة منذ نشأتها الأولى على يد اليونان في تحقيق الإقناع وتقريب المتلقي إلى من يخاطبه، سواء كان من طبقتهم، أو من السلطة التي تحكمه، أو ممن هم دونه في المكانة الاجتماعية والسياسية.

وإن ما يعزّز هذه العلاقة المتينة بين الدراسات اليونانية والمتلقي في قيامها عليه، وتقييمها لنصوصها وفقاً لحالاته "أن البلاغة في التقليد الغربي إنما تحدرت من أصول قضائية وفلسفية بدءاً بالسفسطائيين وأفلاطون وصولاً إلى

* أفلاطون: (427 ق.م - 347 ق.م). فيلسوف يوناني قديم، وأحد أعظم الفلاسفة الغربيين. عرف من خلال مخطوطاته التي جمعت بين الفلسفة والشعر والفن. وأرسطو (384 - 322 ق.م). فيلسوف ومعلم وعالم يوناني، ولد في بلدة ستاجيرا شماليّ اليونان. يعتبر، هو وأستاذه أفلاطون، أهم فيلسوفين بين جميع فلاسفة اليونان القدماء.
1 مصطفى الغرافي: "البلاغة والأيديولوجيا، في العلاقة المتنبسة بين المعرفة والأيديولوجيا". مجلة الرافد، مجلة شهرية ثقافية جامعة، الشارقة، العدد 164، أبريل 2011، ص 6.
2 أحمد الحوفي: فن الخطابة. دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الخامسة، القاهرة، ص 194.
3 محمد العمري: تخليق الخطاب. دائرة الحوار ومزالق العنف. كلية الآداب/الرباط. أجرى الحوار التالي الأستاذ نور الدين أفاية، في إطار البرنامج التلفزيوني: مدارات. وأذاعته القناة الأولى المغربية في صيف 2001. <http://medelomari.perso.sfr.fr/madarat.htm>

* السفسطائيون: طائفة من المعلمين المتجولين في عهد الإغريق القدماء احترفوا مهنة تعليم الناس فن الكلام. والسوفسطائية sophism كلمة يونانية مشتقة من اللفظة «سفسطة» (سوفيسما sophisma)، التي تعني الحكمة والحق. وقد أطلقها الفلاسفة على الحكمة المموهة والحدافة في الخطابة أو الفلسفة، كما أطلقت على كل فلسفة ضعيفة الأساس متهافئة المبادئ. وقد حاربهم فلاسفة اليونان في مقدمتهم: أفلاطون، وكذلك أرسطو.

اهتموا اهتماما خاصا بتعليم فن الإقناع بشكل خاص، ومن هذا المنطلق ركزوا كل اهتمامهم حول بلاغة الكلام، بوصفهم للكلمة أنها تملك من القوة ما يجعلها تقوم بأدوار عديدة إذا أحسن اختيارها من بين الاختيارات العديدة الممكنة؛ حيث يرون بأن كل ملفوظ هو احتمال، وأن الملفوظ في الوقت نفسه لا بد أن ينطوي على بنيات تحقق الإقناع التام.⁽⁶⁾ وأن بلاغتهم التي رفضها غيرهم كالفلاسفة على رأسهم أفلاطون، تحقق غرضا معينا _ ألا وهو الإقناع _ ولا تبحث فيما وراءه، ومادامت الوسيلة (البلاغة المنمقة) تؤدي إلى الغاية المرجوة (الإقناع)، فليس هناك من حرج في توسلها.

وليس هناك من بدّ في نظر هذه الجماعة، أن يحقق الخطيب "المتعلم لفنون القول" ما يصبو إليه مهما كانت قضيته، وهذا لا يكون إلا إذا سابر سامعيه فيما يميلون إليه، واتباع أهواءهم لإرضائهم وكسب وُدّهم وانحيازهم؛ فكانت غايتهم في المقام الأول إقناع المستمع والتأثير عليه، بقضية ما، سواء كانت حقا أم باطلا⁽⁷⁾، من خلال "ترصيع كلامهم بالجمل الرنانة والألفاظ الجذابة؛ وذلك قصد التأثير في الناس، والحصيلة هي دس الغث بالسمين والجيد بالرديء عن طريق شحن النفوس بالمختيلات والأوهام بغية شحذ العزائم ودفع الهمم نحو العمل."⁽⁸⁾

3_ المغالطة المتوارية خلف اللغة الجمالية في البلاغة السفسطائية:

إنّ مما يحسب على السفسطائيين في منهجهم الكلامي أنهم "كانوا مجادلين مغالطين"⁽⁹⁾، وتتمثل المغالطة عندهم في الجدل على مستويين اثنين هما: المستوى الشكلي،

غنى عن هذه الأمور الملتوية والملتبسة التي تبعد كثيرا عن الهدف الذي نسعى إليه، وهو البحث عن ظلال المتلقي في بلاغة هؤلاء، وطريقة نظرهم إليه في إطار نقدي محض يفصل انفصالا كلياً عن المحمولات الفلسفية.

أما عن تاريخ السفسطة وعوامل نشأتها فقد استنفدته الكتب المتعلقة بالفلسفة والأدب اليونانيّين كثيرا، وتحدّثنا بعض الكتابات عن بوادر الاهتمام بالمتلقي _ بصفته إنسانا ذا كيان مستقلّ جدير بالدراسة _ أنه بدأ مع هذه الحركة، لأنها أول من أولى الاهتمام الكبير بالإنسان بدل الوجود والماورائيات التي انشغل بها الفلاسفة المتقدمون، "باعتبارها باكورة الفلسفات الإغريقية التي حولت الفكر اليوناني من مرحلة النظر في الكون إلى مرحلة النظر في الإنسان نفسه باعتباره مقياساً للأشياء ومعيّاراً للحقيقة."⁽⁴⁾

وقد ركّزت كثيرا على هذا "الإنسان" في علاقته بمشكلات حياته وظروفها التي تستدعي حلولاً وتعاطيا يساعد على تكيفه معها، فاتخذت من الدافع الخطابّي أداة لها نظرا للجو الذي طغى على بلاد اليونان، خاصة في الفترة التي كثر فيها التنافس على السلطة وفتح المجال لعامة الشعب في حق الترشح لها؛ ف"لم يكن همّ السفسطائيين منصبا على نقل وتبادل المعرفة النظرية بقدر ما كانوا يهدفون إلى تكوين المواطنين المختارين للعمل السياسي، ولم يكن يعينهم في مساعهم طلب الحقيقة بقدر ما كان النجاح المبني على فن الإقناع والإفحام هدفهم."⁽⁵⁾

معنى ذلك أنّ السفسطة بدأت بطابع تعليمي يحاول تبصرة العوام بفنون القول وحيله، حتى تتكافأ الفرص بين الجميع، ويسقط عامل الاحتكار للسلطة الذي عرفته أثينا زمناً، فكان المتلقي عند هؤلاء يقابل مصطلح "المتعلم" أو "المتلقن"، حيث "احترفوا فن القول...، وقد

⁶ هدية جبلي: "ظاهرة الانزياح في سورة "النمل" دراسة أسلوبية" بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في اللغويات، إشراق: أد رابح توب، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية: 2006-2007م، ص 57.

⁷ بخوش علي: "مفهوم التلقي في الفكر اليوناني القديم"، مجلة المخير، مخير أبحاث في اللغة والآداب الجزائرية، قسم الأدب العربي، جامعة بسكرة، العدد 3، 2006م، ص 2.

⁸ زهير الخويلدي: فن المغالطات والحجج الباطلة. شبكة النبا المعلوماتية للثقافة والإعلام، الأحد 26/أيلول/2010 - 16/شوال/1431، <http://www.annabaa.org/nbanews/2010/09/269.htm>

⁹ فهد بن محمد القرشي: المنطق الأرسطي، بحث مقدم سعادة الدكتور: محمود مزروعة. كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، دكتوراه العقيده 1428هـ. ص 05.

⁴ كريم عزيز عبدالكريم: "السفسطائية وتمثاتها في النص المسرحي الإغريقي". مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، كلية العلوم الجميلة، المجلد 20، العدد 2، 2012م، ص 545.

⁵ محمد مجدي: الفلسفة الإغريقية، ط1، بيروت: دار العربية للعلوم ناشرون، 2009، ص 212. عن: المرجع السابق. ص 548.

على الوضوح والبيان والإحكام ومجازة المنطق والصواب، الأمر الذي استدعى "ضرورة خلو الحجاج من الإيهام والمغالطة والابتعاد عنهما، لأنه لا يخلو الحجاج منهما، عادة، إذا كان معنى الخطاب غير محدد، إذ يصبح من قبيل الخطاب العام الذي لا يكتشف المرسل إليه إلا بعد حين".⁽¹³⁾ وتقاديا لهذه الالتباسات التي قد تشوب عناصر الخطاب وتشوّهه، لم يعتبر الإغريق البلاغة فنا للزخرفة بقدر ما اعتبروها حذقا للكلام وفنا للتفكير والجدل.⁽¹⁴⁾

لم يُلَقِ السفسطائيون بالا لهذه التشديدات في بناء الخطابة وإصرار الفلاسفة على احتذائها، بل مضوا قُدماً في التفنن في بلاغة القول، هادفين للمغالطة أولاً، وترسيخ ما تحمله من أفكار في نفوس المتلقين، وإن كان ذلك يعني طمس الحقائق والتشويش على الناس؛ فالسفسطائي "لا يهتم بالحقيقة بل المهمّ عنده هو إدخال البهجة على نفوس السامعين و إن كان ذلك من طريق كذب، ومن هنا نجد أنفسنا أمام ثنائية الحقيقة / الكذب، الحقيقة والمجاز، أو الحقيقة والظن؛ والكذب ما هو إلا انزياح عن الحقيقة".⁽¹⁵⁾

وتدخل المغالطة التي انتهجها السفسطائيون في باب التلاعب اللغوي، أو ما يسمّى تحديداً "التلاعب اللفظي والإتيان للتراكيب اللغوية"⁽¹⁶⁾، وهي التفكير باستعمال المكر والغدر والاحتتيال مع دراية بالقوانين المنطقية والتفنن في استعمالها من أجل إنتاج الكذب وإيقاع الآخر في الزيف وقلب الحقيقة إلى وهم، وتتمدد إيجاد الإقناع عن طريق الإبهام والدهشة واستخراج الحقيقة من الإحراج والمعضلة التي يقع فيهما المحاور.⁽¹⁷⁾

إنّ هذه الحيل اللغوية هي المظهر البلاغي للسفسطة الذي يختلف عن مظهرها الثاني

والمستوى المضموني، وليس يعنينا كما ذكرنا سوى المستوى الأول الذي يكشف عن المجال البلاغي ويوصّفه، من ذلك تركيزهم كثيراً على الجماليات والفنيات الزخرفية التي تتمق القول، إيماناً منهم بجدوى هذه الأمور في تحقيق الإقناع لدى المتلقين، وبالوظيفة التي تضطلع بها في النصوص غير إضفاء الحسن والجمال عليها.⁽¹⁰⁾ وقد بدا هذا الجانب بجلاء عندهم في محاولتهم جعل ظاهر القول جميلاً يأخذ بالألباب، فيُجذب المتلقي بالطلاوة التي تملو كلامهم، وينجذب بفعل ذلك إلى مضمونه، ومن ثم الاقتناع به عن توهم.

ولكن، لماذا الإقناع بالكلام تحديداً عند هؤلاء؟، ولماذا الحرص على البلاغة المنمّقة فيه؟.

كان لدى السفسطائيين اعتقاد راسخ حول قوة الكلمات وأثرها السحري في النفاذ إلى النفوس، وتخدير العقول إذا كانت منقاة بدراسة وعناية كبيرين، "فلسطان الكلام ليس فوقه سلطان، وقوة الحجاج ليس ينكرها أحد.. فكيف إذا اجتمعت القوتان؟، خاصة وأنّ قوة الحجاج من قوة الكلمات".⁽¹¹⁾

بيد أنّ القوة التي رآها السفسطائيون في اللغة هي قوة بلاغية يرتجى منها في الأصل المتعة والإبداع، طوعوها حسب نياتهم ومضمراتهم إلى قوة مغايرة، تترجّل هذه القاعدة الإمتاعية لنقول ما لا يقال أو ما لا يدخل في باب الحق والحقيقة؛ ف تتحول اللغة إلى وسيلة مغالطة وفن من فنون التزييف، ويتم إقحام الكلام البشري في استراتيجيات الخداع والتضليل.⁽¹²⁾

غير أنّ الحجاج الذي قامت عليه الخطابة اليونانية في تمرير رسائلها بغرض الإقناع من القواعد الهامة التي ينبغي على المتكلم ضبطها

¹³ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية - دار أوبا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية، طرابلس، الجماهيرية العظمى، ط1، مارس 2004 ص 468.
¹⁴ عمر بلخير: معالم لدراسة تداولية وحجاجية للخطاب الصحافي والجزائري المكتوب ما بين 1989 و 2000. أطروحة دكتوراه، إشراف: أ.د خولة طالب الإبراهيمي، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، 2005-2006م، ص 170.
¹⁵ هدية جيلي: "ظاهرة الانزياح في سورة "النمل" - دراسة أسلوبية -". ص 57.
¹⁶ وفاء إبراهيم: الفلسفة والشعر الوعي بين المفهوم والصورة. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ط، 1999م، ص 26.
¹⁷ زهير الخويلدي: فن المغالطات والحجج الباطلة. <http://www.annabaa.org/nbanews/2010/09/269.htm>

¹⁰ ينظر، إسماعيل شكري: في نقد الصور البلاغية: مقارنة تشبيدية المملكة المغربية/ وزارة الثقافة/ http://www.miniculture.gov.ma/index.php?option=com_content&view=article&id=1011:2010-03-08-12-35-14&catid=51:etude-et-essais&Itemid=153
¹¹ أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج. العمدة في الطبع، منتديات سور الأزبكية، ط 1، 2006م، ص 129.
¹² زهير الخويلدي: فن المغالطات والحجج الباطلة. <http://www.annabaa.org/nbanews/2010/09/269.htm>

إلى أهدافه، منها بلاغة التحايل وبلاغة المغالطة
وبلاغة الكذب...⁽²²⁾

بحيلنا هذا السياق على زوايا ثلاث من
البلاغات القائمة على "التلاعب"، وهي: التحايل
والكذب إلى جانب المغالطة، ولكن أكبر الظن
أن بلاغتي التحايل والمغالطة اللتين تقتربان كثيرا
من بعضهما أنفذ في إقناع المتلقي من بلاغة
الكذب، لأنهما تعملان في عقله عمل الساحر
في أعين المشاهدين، بينما الكذب لا يلبث أن
يكتشفه المتلقي بطريقة أو بأخرى؛ فالأوليان _
أي بلاغة التحايل وبلاغة المغالطة _ ترميان في
الظاهر لمصلحة هذا المتلقي، ومن ثم تدفعانه
للوثوق بكلام المخاطب والإقناع به، بينما تبين
بلاغة الكذب النوايا المبيتة للمخاطب، وأنانيته
في أهدافه، مما يؤدي بهم إلى النفور منه. فمنهج
الفسطاطيين يقوم على بلاغة التحايل والمغالطة،
لأنهما لا يمكنان المتلقي من كشف حقيقة ما
يدعون، أما بلاغة الكذب فشفافة تقترب من ذلك
المسمى في المنطق "تبيكتا" بحيث يُعرّف فيه
الغلط الحاصل في كلام المتكلم.

و"التبيكت في اللغة التعنيف والترقيع إما
بالسوط أو السيف، ويستعمل في التعنيف بالكلام
مجازاً، أما في اصطلاح المنطقيين: كل قياس
نتيجته تكون نقضا لوضع من الأوضاع...
والتبيكت السوفسطائي هو القياس الذي يوهم أنه
بهذه الصفة ومن غير أن يكون كذلك."⁽²³⁾
فالتبيكت إذن _ حسب هذا التعريف _ عند
المناطق قياس تأتي نتيجته على شاكلة خاطئة
حول قضية ما تكون مدار النقاش والجدل؛
والملاحظ أن "المغالطة السوفسطائية" في هذا
التعريف تندرج تحت اصطلاح "التبيكت" القائم
على "الإيهام" الذي يعمل على تخدير المتلقي
وإقناعه بصحة القضية، أو خطئها، على حسب
ما يريدون تحقيقه في النتيجة.

المتعلق بمضامينها الجدلية، والذي يقصد به
"الإغفال، أو التغافل عن المعنى الحقيقي...
[كأن] يتجاهل المرء ما يجب أن يبرهن عليه ضد
الخصم، فيبرهن على شيء آخر موهماً خصمه
أنه أجاب على المطلوب"⁽¹⁸⁾ ولكنه مظهر متمم
له، يعمل على تزيينه في النفوس لتقبله بقبول
حسن.

فالكلمة عند الفسطاطيين هي الوسيلة المثلى
لتحقيق "الإقناع"، لذلك مثلت البلاغة _ التي هي
وعاؤها _ "الموضوع الأساس في دروسهم، وكانوا
يدعون أنهم قادرون على تعليم تلامذتهم كيف
يتكلمون بأقل الكلام المقنع، ويحاججون كلا
الطرفين في أية قضية"⁽¹⁹⁾؛ حتى وإن كانت
قائمة على ما أسماه "مغالطة"، لأن هذه الأخيرة
حين تمتزج مع معرفة كبيرة بأفانين القول عند
المتكلم، فإنها سد تقوم كغيرها من المصطلحات
بدور فاعل في توجيه السياقات إلى دلالات
متعددة.⁽²⁰⁾ من خلال ذلك، يتبدى لنا أن نوايا
الفسطاطيين لم تكن سليمة تجاه المتلقين، بل
سعوا جاهدين إلى "الإيقاع في الخطأ وخداع
الآخرين."⁽²¹⁾

4_ المتلقي طرف مستغل في بلاغة الفسطاطيين وليس محل اهتمامهم كما يخيل إليه:

في الحقيقة إن هذا الاهتمام "الوهمي" الذي
جعل الفسطاطيون المتلقي من خلاله يخيل إليه
أنه سيّد المقام لم يعزّز سوى من مكانة
المخاطب؛ فمركز الخطاب إذن هو المتكلم الذي
يتصرف في اللغة ويجعلها لصالحه خادمة
لمصالحه، والمخاطب السياسي أكثر تمثيلاً لهذا
الطرف، فهو الذي يوظّف عدّة بلاغات للوصول

¹⁸ عمر عبدالله كامل: مذكرة في تيسير المنطق. ص 38. من موقع
الدكتور عبدالله كامل:

http://www.okamel.com/index.php?option=com_content&view=article&id=108&Itemid=152

¹⁹ كريم عزيز عبدالكريم: "الفسطاطية وتمثاتها في النص المسرحي
الإغريقي". ص 548.

²⁰ هاشم أحمد العزام: "المغالطة بين البلاغة والمنطق". مجلة جامعة
الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، م 15، ع 1، 2007م،
ص 195.

²¹ زهير الخويدي: فن المغالطات والحجج الباطلة.
<http://www.annabaa.org/nbanews/2010/09/269.htm>

²² حمو الحاج ذهبية: خطاب الثورة السورية من بلاغة المتكلم إلى بلاغة
الجمهور.

http://www.alketaba.com/index.php?option=com_k2&view=item&id=1562:balaghetalmotakalem&Itemid=157

²³ نيا عبدالستار جابر الربيعي: المنطق عند أبي البركات البغدادي
دراسة تحليلية. رسالة ماجستير، قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة
الكوفة، إشراف: الأستاذ الدكتور نعمة محمد إبراهيم، 2012م، هامش
ص 156.

مهما يكن من أمر حول مصطلح "المغالطة" وما يتعلّق به، فما يهَمُّنا تحديداً هو الوقوف على فاعليته ونجاعته في إنشاء خطابات تنافس المناويل الفلسفية السائدة في بلاد اليونان آنذاك، الأمر الذي أفضى إلى ريادة السفسطائيين في مجال الخطابة القضائية المُتَمَنِّعة؛ خاصة عندما بادر السفسطائي الصقلي الشهير "Corax" كوراكس بوضع مشروع خطابة، يقوم على "صناعة" كلامية تراعي النقاط التي تؤثر في القاضي، وترمي إلى تحقيق المصلحة.⁽²⁷⁾ وبدأت مساحة الفلسفة تتقلّص شيئاً فشيئاً، مما أثار حفيظة أعمدتها وحاملها، حيث تصدى سقراط لهذه النزعة التي استفحلت عند السفسطائيين⁽²⁸⁾ وغلبت المغالطة على الحقيقة، فحاربها محاولاً إقامة البيّنة عليها، وبيان أوجه البطلان فيها.

5_ أشكال اللغة الجمالية:

إذا ما نحن وقفنا عند تركيبة هذه المغالطة بلاغياً، وتبيننا تلك النقط المؤثرة التي شدّد عليها السفسطائيون، والتي تتعلّق بدور جماليات اللغة في "خداع" المتلقين، وإدخالهم في دائرة التصديق؛ وجدنا أنّ "الخطابة الناجحة يفترض فيها أن تكون مرصّعة بألوان البديع، ومزخرفة بأشكال لغوية مؤثرة حتى يتجاوب معها المستمع ويتأثّر بها، وبالتالي يقتنع بما قيل له، حتى وإن كان المعنى المتضمّن فيها غير موافق للاستدلالات العقلية وغير خاضع للمنطق."⁽²⁹⁾

على أنّ أرسطو يصرّ على كون المغالطات السفسطائية هي "تضليل" بآتم معنى الكلمة، لأن التبكيت ربما لا يُقصد من خلاله سوى الدّابة مع المتلقي في مجالس السمر، أما التضليل فيراد من ورائه مصلحة خاصة بالمُرسل، يحاول أن يصل إليها بعد الإيقاع بالمتلقي، وهو يعني التضليلات هنا المغالطات، ذلك أن التضليل هو محور السياق المغالطي، وهدف المغالط أثناء الحوار والجدل، فخداع المخاطب وإيهامه أثناء المحاججة قائم على التضليل.⁽²⁴⁾ وإن كان يبدو أن أرسطو هنا يخصّ المغالطة المضمونية بالذكر، والحال أنه كان فيلسوفاً، ومن أهمّ ميزات الفلسفة الحرص على المضمون الذي يجب أن يتماشى مع الحقيقة ويبتعد عن الأغاليط والالتباسات.

ولقد نجد مصطلحا آخر قريباً من مفهوم "المغالطة" _ مدارٍ حديثاً _ وهو "الاستهواء"، الذي يندرج ضمن أنواع الحوار؛ وهذا النوع من الحوار، "يلجأ فيه المتحدث إلى استمالة الناس أو إربابهم؛ لذلك سميناه استهواء، من "الهوى"، غايته الاستمالة أو الضغط والابتزاز. ويتم ذلك بطريقتين: طريق شعري بواسطة صور جميلة وأشياء أخرى فيها إغراءً وتعطيلٌ للحاسة النقدية عند الآخرين."⁽²⁵⁾ فالاستهواء يقوم على بلاغة كلامية عبّر عنها في القول بـ "الطريق الشعري" بما فيه من "صور جميلة"، وعلى كلّ ما من شأنه أن يخدّر عقول المتلقين من مضامين تتخفى عن أعين الفحص والتمحيص؛ غير أنه يختلف عن المغالطة التي انتهجها السفسطائيون في اعتماده على ما سماه الكاتب بـ "الابتزاز والضغط والإرباب"، وهي من الوسائل التي لا نجدها في المغالطة؛ وإن كان هذا المصطلح قد ذكره أفلاطون في حمله على جماعة السفسطائيين وطريقتهم الكلامية من بابٍ يستحضر مرادفَ "المغالطة".⁽²⁶⁾

²⁷ يُنظر، المرجع نفسه. ص 248.. 251.

* سقراط 399-469 ق.م: فيلسوف يوناني كلاسيكي. يعتبر أحد مؤسسي الفلسفة الغربية. لم يترك سقراط كتابات وجل ما نعرفه عنه مستقى من خلال الروايات تلامذته عنه. ومن بين ما تبقى لنا من العصور القديمة، تعتبر حوارات "أفلاطون" من أكثر الروايات شموليةً وإماماً بشخصية "سقراط" بحسب وصف شخصية "سقراط" كما ورد في حوارات "أفلاطون"، فقد أصبح "سقراط" مشهوراً بإسهاماته في مجال علم الأخلاق. وإليه تنسب مفاهيم السخرية السقراطية والمنهج السقراطي، ولا يزال المنهج الأخير مستخدماً في مجال واسع من النقاشات كما أنه نوع من البيداجوجيا (علم التربية) التي بحسبها تطرح مجموعة من الأسئلة ليس بهدف الحصول على إجابات فردية فحسب، وإنما كوسيلة لتشجيع الفهم العميق للموضوع المطروح. إن "سقراط" الذي وصفه أفلاطون هو من قام بإسهامات مهمة وخالدة لمجالات المعرفة والمنطق وقد ظل تأثير أفكاره وأسلوبه قوياً حيث صارت أساساً للكثير من أعمال الفلسفة الغربية التي جاءت بعد ذلك.

²⁸ محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية: الخطابة في القرن الأول نموذجاً. منشورات الأزيكية، إفريقيا الشرق، المغرب ولبنان، ط 2، 2002م، ص 14، 15.

²⁹ بخوش علي: "مفهوم التلقي في الفكر اليوناني القديم". ص 3.

²⁴ هاشم أحمد العزام: "المغالطة بين البلاغة والمنطق". ص 191.

²⁵ محمد العمري: تخليق الخطاب _ دائرة الحوار ومزالق العنف. <http://medelomari.perso.sfr.fr/madarat.htm>

²⁶ يُنظر، هشام الربيعي: الحجاج عند أرسطو. ص 56. ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود. فريق البحث في البلاغة والحجاج، طبع كلية الآداب منوبة، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية _ تونس، المجلد: XXXIX

أما تلك التي لا تخدم المتلقي ولا تغير في موقفه أو فكره شيئاً فلا تعدو كونها "زبداً" لا طائل منه، ومجرد تلاعب بالألفاظ غرضه إظهار البراعة في التعبير من طرف المتكلم، ومنها "الاستعارة البديعية".⁽³⁶⁾ بيد أن السفسطائيين قد وقفوا _ من خلال براعتهم الحجاجية من جهة، والبلاغية من جهة أخرى _ في المنزلة بين المنزلتين، لأنهم استطاعوا أن يطوعوا ما أسماه الدارس بـ "الاستعارة البديعية" التي نعتها بـ "غير المفيدة" _ نقلًا عن عبدالقاهر الجرجاني^{37*}، ويصبغوا عليها صفة الحجاج لأنهم تمكنوا برغم هذا التلاعب البلاغي أن يبينوا كلامهم بمقاصد نجحوا في إيهاام المتلقين بصحتها، استعانة بهذه الصور الجمالية.

إنّ عملية السيطرة على عقل المتلقي وإبقائه في إطار الوجهة التي يريدها المتكلم ليست بالأمر الهين، فهي عملية معقدة ومُتعبة، تتطلب يقظة دائمة، وحرصاً على التنسيق بين ظاهر القول وباطنه، من خلال إحكام في الصنعة والقضية المتناولة معاً، وإلا انفطرت العقدة وانقلب السحر على الساحر، سيما وأنّ المخاطب في موقف "الخداع والتمويه والإيهام"؛ وهي صور تستدعي دقة وحذراً كبيرين، حيث يتعين على المتكلم أن يجدد أفق التخاطب بما يدعم موضعه الحجاجي؛ وذلك ليظل مسيطراً على مدارك المخاطبين وعقولهم وأفئدتهم، ومن ثم ضمان تأييدهم خطاب الحجاج وبقائهم في مساحة التداول.⁽³⁸⁾

معنى ذلك أنهم ركزوا على "مبدأ الاستجابة ليصبح قاعدة عامّة لفنّ الخطابة، ولم يكن مطلوباً من الخطيب تلبية ملكة الفهم بأقيسة منطقية واستنتاجات كضرورة أساسية، بل كان مطالباً _ في المقام الأول _ بصدم عواطف المتلقي وإيقاظ أهوائه واجتذابه."⁽³⁰⁾

فكلّ ما يقوّي الفكرة عند السفسطائيين ويدعمها يعتبر من الأساسيات الكلامية التي يتوجّب الوقوف عليها، واستغلالها أحسن استغلال، وإن كان هذا الذي يقوّيها منبوذاً أو مهجوراً عند الفلاسفة؛ لأنه "من صلب النصوص وهو ليس فضلة في الكلام، بل له تأثيره في صناعة المعنى، خصوصاً إذا تعلق الأمر بالمحسنات المعنوية، التي يوردها المتكلم في الغالب حين يريد مغالطة في كلامه أو إشارة دون تصريح أو غير ذلك."⁽³¹⁾

وتتعدّد أشكال القول وطرائقه، فهي ليست محسنات فقط، بل يمكن أن تأتي على هيئة صور بيانية تؤدي المغالطة وتقويها، ويتظاهر الكلّ ليدخل في حيز "الأقويل المغالطية التي تقع في النصوص الخطابية لغايات الإقناع"⁽³²⁾ فغالباً ما تكون الاستعارة مثلاً مظهرًا بلاغيًا يعزّز الإقناع ويحصله أكثر من أي كلام عاديّ، فهي "أدعى من الحقيقة لتحريك همّة المرسل إليه إلى الاقتناع"⁽³³⁾، لأنها ذات "قوة حجاجية عالية."⁽³⁴⁾ وكونها "من الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية."⁽³⁵⁾

ولا ينفي بعض الدارسين أنّ إقناع المتلقي والوصول إلى التأثير فيه إنما يكون بوساطة جماليات اللغة، ولكن شريطة أن تتضمن بين ثناياها حجاجاً، ومن ذلك: "الاستعارة الحجاجية"،

³⁶ ينظر، المرجع نفسه ص 108_109.
* الجرجاني، عبدالقاهر (400 - 471هـ/ 1010 - 1078م): أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، ولّد وتوفي في جرجان. تتلمذ على أبي الحسين بن عبدالوارث، ابن أخت أبي علي الفارسي، وكان يحكي عنه كثيراً، لأنه لم يلق شيئاً مشهوراً في العربية غيره لعدم خروجه من جرجان في طلب العلم. ويُعد عبدالقاهر واحداً من الذين تقدر بهم الحضارة الإسلامية في مجال الدرس اللغوي والبلاغي، إذ تقف مؤلفاته شامخة حتى اليوم أمام أحدث الدراسات اللغوية، ويُعد كتابه دلائل الإعجاز قمة تلك المؤلفات؛ حيث توصل فيه إلى نظريته الشهيرة التي عُرفت باسم نظرية التعليق أو نظرية النظم، التي سبق بها عصره، ومازالت تبهير الباحثين المعاصرين، وتقف نداءً قوياً لنظريات اللغويين الغربيين في العصر الحديث.

³⁸ ينظر، عبدالله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي (بيروت)، وكلية الآداب والفنون والإنسانيات بتونس (منوبة)، ودار المعرفة للنشر (تونس)، ط2، 2007، ص10، 11، 14.

³⁰ المرجع نفسه ص 3.
³¹ شارف عبدالكريم: "أثر البديع خصوصاً فنون الإيهام في عملية القراءة وتأويل النص الأدبي البديع والقراءة _ "أصوات الشمال، مجلة عربية ثقافية اجتماعية شاملة. نشر في الموقع بتاريخ: الجمعة 26 صفر 1433هـ الموافق لـ: 20-01-2012، <http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&c=2&a=2432>
³² هاشم أحمد العزام: "المغالطة بين البلاغة والمنطق" ص 195.
³³ عبدالهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب _ مقاربة لغوية تداولية _ ص 496.
³⁴ أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج. ص 102.
³⁵ المرجع نفسه ص 105.

6_ الحمل على السفسطة:

أن لنا أن نتساءل الآن عن هذا التوجه الذي تبنته السفسطة، هل هو إقناع فعلا، أم أنه خداع، أم أنه جمع بين الاثنين؟

لقد كان أفلاطون من بين أكثر الفلاسفة المعارضين للمنهج السفسطائي الكلامي ولطريقتهم في القول، ف "حصر... البلاغة في النقاش الدائر بين المتفلسفين، وما خرج عن هذا يُعدّ سفسطة لأنها تقوم على الخداع لا الصدق." (39) فبلاغة السفسطائيين إذن، بلاغة خادعة، مادامت تشوّه الحقائق، وتشوّشها على المتلقي، وتبتعد به كلّ البعد عن الصدق والصواب؛ لذلك "فهي صناعة لا تستحقّ أي احترام أو تقدير." (40)

واعتمادا على هذا الأساس، "مميز بين نوعين من البلاغة إحداهما سيئة والأخرى جيّدة. الأولى هي التي تعكسها الخطب المحفلية والسوفسطائية، وتقوم على المغالطة والتوهيم، والثانية هي التي يمثلها الجدليون والفلاسفة، ويسميتها أفلاطون بسيكاغوجيا Psychagogie. وهي وحدها القادرة على الوصول إلى الحقيقة." (41) فعلة البلاغة وأساسها أن تكون رامية إلى الصدق وتبليغه للمتلقي، أما إن هي صدّت عن هذا السبيل، واتبعت كلّ مموّه من الأقاويل، ودعت إلى الأباطيل، فواجب على أصحاب العقول محاربتها ودرء مفسدتها التي تضرّ بالمجتمع.

ولأنّ الخطابة كانت العامل المشترك بين جماعة السفسطائيين والفلاسفة على رأسهم أفلاطون، فقد حاول هذا الأخير تفنيد محاولاتهم، والإيقاع بهم بكلّ ما أوتي من قوّة القول والحكمة والفلسفة، فهم اشتغلوا على الخطابة، والخطابة تروم عنده التصديق وإحقاق الحقيقة؛ ومن

أعمدها التي تقوم عليها الإقناع؛ أما بلاغة السفسطائيين فبلاغة مموّهة، خادعة من خلال ما تتوسله من التلاعب اللغويّ الشبيه بـ "التخييل"، هذا العنصر المتعلّق بالشعر الذي رفضه أفلاطون انطلاقا من طابعه المعميّ للحقيقة؛ وعليه فقد كان منطقياً أن يحمل على السفسطائيين لأنهم (حزّفا) مسار البلاغة الخطابية التي كان يدعو إليها؛ ف "الفرق بين الشعر والخطابة يكمن في أن الشعر يستعمل التخييل، والخطابة تستعمل التصديق." (42)

ومن أكثر المظاهر التي تبعت على عنصر "التخييل" المنافي للتصديق "أن تكون الخطبة ذات قواعد شكلية تكثّر فيها المحسنات اللفظية والبدع الكلامية المغربية والخداعة." (43) وهي المظاهر التي عُرفت بها الخطابة السفسطائية تحديداً، مما يدعم ما ذهب إليه أفلاطون في رفضها، والطنع فيها، وما قال به نقاد معاصرون في اعتبارها شكلا من "الإسراف"، وأنّ "هذا الإسراف كان يوما ما عاملا من عوامل انحطاط البلاغة، والنظر إليها بوصفها آلية إقناعية عابرة Ephémère وذلك مما جعل تلك الأشكال البلاغية هدفا في حد ذاتها، وهو ما أفقد اللغة قدرتها على نقل الواقع ورسم المستقبل وإحداث الإثارة الفنية الكفيلة بخلق ثنائية: الإقناع والفعل." (44)

هذا، وأنّ النظر إلى الخطابة الإقناعية من زاوية "التخييل" - كما اصطلح عليه أفلاطون -، أو "الشعرية" - كما درج على تسميتها المعاصرون - حسب ما جاء به أرسطو - تلميذ أفلاطون - "لا تعدم الشرعية بصفة مطلقة،

* التخييل هو وظيفة للنفس غير السامية، لأنها مصدر للوهم وسبيل للخطأ؛ حسب مفهوم أفلاطون. فما يقمّه الخيال ماهو (الأوهام وتضليل للمتلقى). (ينظر: رشيدة كلاج: "الخيال والتخييل عند حازم القرطاجني بين النظرية والتطبيق". مذكّرة ماجستير، إشراف: د. العلمي لراوي. قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية: 2004/2005م، ص 13_14.)
42 الأخضر جمعي: نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين. ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، د، ط، 1999م، ص 123.

43 عبدالله بن عبدالوهاب العمري: آراء أفلاطون في الشعر والخطابة. ماجستير بقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، إشراف: أ.د. سعد أبو الرضا. كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1428هـ، ص 15.

44 محمد سالم ولد الأمين: "مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة". مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 28، ع3، مارس 2000، ص 85.

39 بوزناشة نورالدين: "الحجاج في الدرس اللغوي الغربي". مجلة علوم إنسانية - مجلة دورية محكمة تعنى بالعلوم الإنسانية. السنة السابعة: العدد 2010، ص 03.

40 صابر الحباشنة: التداوالية والحجاج مداخل ونصوص - صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الإصدار الأول 2008م، ص 67.

41 رولان بارت: البلاغة القديمة، ترجمة وتقديم عبد الكبير الشراوي. ص 41...45.

وعلى "الخداع" في مقابل ذلك، فالهدف عندهم هو الإقناع، والطريقة هي الخداع، أما عند أفلاطون، فالهدف هو الصدق والحقيقة⁽⁴⁷⁾ وألسيلة هي الإقناع؛ ومن هنا يتبين أنّ كلاً من الطرفين انطلق من زاوية معينة ليصل إلى نقطة تختلف عن تلك التي ارتأها الطرف الآخر، لذلك لا يمكن أن يقف أي منهما على مثالب النذ مادام الهدف والطريقة في الأصل مختلفين.

ومما يدلّ على أنّ السفسطائيين استطاعوا أن يجمعوا بين المكوّنين (الإقناع/الزخرفة الكلامية) في بلاغتهم الخطابية أنهم عكفوا على الاهتمام "ببنية كل من الكلمة والجمله، وبحثوا في السبل الممكنة التي بها يتحقق الإقناع وتغيير مواقف الآخرين، وقد استعانوا في سبيل تلك الغاية بخبرة بالغة في مقامات الناس والقول معاً، وأيضاً بآليات إجراء اللغة بحسب المقاصد والظروف التواصلية".⁽⁴⁸⁾

الخاتمة:

إنّ نظرة إلى كلّ ما سبق من حديث، تحيلنا على تمييز موضعية المتلقي عند جماعة السفسطائيين ونظرائهم من الفلاسفة، حيث اتّخذت هذه الجماعة من العوامّ مستقبلاً لأفكارها، فلم تعتمد الطبقية في منهجها، ودهي أن يكون أمرها على هذه الشاكلة، فالفلاسفة هم الذين كانوا يعتلون منابر النخبة، ويخاطبونهم في الوجود وماورائهم، وأشياء ليس للعامّة أن تتلقّوها وتتجاوب معها، كقيم الجمال والصدق والحقيقة وغيرها من الأمور المجردة التي لا تهّم العامّي ولا تخاطبه على قدر عقله؛ ولقد استطاعت السفسطة أن تشدّه إليها، وتشعره بوجوده، وبفاعليته في المساهمة في تغيير الحكم والقدرة على الوصول إليه، فاستقطبت الأغلبية الساحقة، وطغت على عقولها، ونجحت في استمالتها واستهوائها، مما حرّز في نفوس الفلاسفة الذين وجدوا ما يدعون إليه من حقّ يتزعزع أمام ما يدعو إليه السفسطائيون من باطل وبروجون له؛ فكان أن

ولكنها تقف عند عنصر واحد من عناصر التأثير والإقناع التي يلجأ إليها الخطيب، وهو عنصر قد لا يكون له حضور مؤثّر في بعض الخطب، وقد يكون مهيمنا في بعضها الآخر. كما أنّ مكانته في الخطابة الأرسطية تالية لمكانة عناصر الإقناع الأخرى؛⁽⁴⁵⁾ لذلك كان موقف هؤلاء الفلاسفة من النموذج الخطابي السفسطائي سلبياً، فالاشتغال على الجماليات والزخارف الشكلية والانشغال بها يحيد بالدارس أو المتلقي عن الهدف المضموني الذي ترمي إليه الخطابة.

في الحقيقة أنّ الخطابة عند السفسطائيين كانت "حقلاً تجريبياً عكسوا فيهم تصوراتهم المعرفية، حيث إنهم أرادوا أن يوجدوا لأفكارهم النظرية مجالاً عملياً يجسد افتراضاتهم، ويمنح تصوراتهم طابعاً ملموساً.⁽⁴⁶⁾ فلم يكن همهم الوصول إلى الحقيقة أو الصدق اللذين سعى إليهما أفلاطون ومن نحا نحوه، بل منتهى غايتهم أن يجدوا جمهوراً يعتنق آراءهم التي كانوا يعتبرونها بضاعة مزجاة يجنون من ورائها أموالاً، فإن هم نجحوا في إقناعه، فهذا هو الربح عندهم؛ إذ ليس من شأنهم أن يبحثوا في الوجود وأسراره، ولا في القضايا الميتافيزيقية التي لا تخدم الشعب اليوناني في تلك الظروف التي يمر بها بأية حال من الأحوال؛ بل كلّ ما يخدم مصلحتهم كامن في محاولة تحسيس هذا الجمهور بالواقع المعيش، وتعليمه سبل التأقلم وحلّ المعضلات، بعيداً عن الفلسفات التي لا تخاطب إلا النخبة، ولا تهتمّ بمشاغل العوامّ.

لذلك فإنّ "الإقناع" بصفته هدفاً كان محققاً عند هؤلاء، بغض النظر عن المضمون أو الفكرة التي يحملها، فهم لم يهتموا بالمحمول (مضمون الإقناع) بقدر ما اهتموا بالحامل (الإقناع) على عكس أفلاطون تماماً، ومن ثمّ، فمنهجهم في الكلام يختلف عن منهج هذا الأخير، مما يجعلنا نقف عند رأي أفلاطون فيهم، نعاود النظر فيه ونقلبه لنجد أن منهجهم قائم على "الإقناع" أيضاً،

⁴⁷ ينظر، محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 13.

⁴⁸ محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر. دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2008م، ص 25.

⁴⁵ محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 08.
⁴⁶ الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ص 25. عن: بخوش علي: "مفهوم التلقي في الفكر اليوناني القديم"، ص 2.

- طرابلس، الجماهيرية العظمى، ط1، مارس 2004.
7. محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية: الخطابة في القرن الأول نموذجاً. منتديات سور الأزبكية، إفريقيا الشرق، المغرب ولبنان، ط2، 2002م.
8. محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر. دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2008م.
9. هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو. ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود. فريق البحث في البلاغة والحجاج، طبع كلية الآداب منوبة، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية تونس، المجلد: XXXIX
10. وفاء إبراهيم: الفلسفة والشعر الوعي بين المفهوم والصورة. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ط، 1999م.

المراجع المترجمة:

11. رولان بارت: البلاغة القديمة، ترجمة وتقديم عبد الكبير الشرفاوي. نشر الفنك للغة العربية. الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1994.
- الدوريات:**
12. بخوش علي: "مفهوم التلقي في الفكر اليوناني القديم". مجلة المخبر، مخبر أبحاث في اللغة والآداب الجزائري، قسم الآداب العربي، جامعة بسكرة، العدد 3، 2006م.
13. بوزناشة نورالدين: "الحجاج في الدرس اللغوي الغربي". مجلة علوم إنسانية - مجلة دورية محكمة تعنى بالعلوم الإنسانية. السنة السابعة: العدد: 44، 2010.
14. شارف عبدالكريم: "أثر البديع خصوصاً فنون الإيهام في عملية القراءة وتأويل النص الأدبي - البديع والقراءة -". أصوات الشمال، مجلة عربية ثقافية اجتماعية شاملة.
15. كريم عزيز عبدالكريم: "السفسطائية وتمثلاتها في النص المسرحي الإغريقي". مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، كلية العلوم الجميلة، المجلد 20، العدد 2، 2012م.
16. محمد سالم ولد الأمين: "مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة". مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 28، ع 3، مارس 2000.
17. مصطفى الغرافي: "البلاغة والايديولوجيا، في العلاقة الملتبسة بين المعرفة والايديولوجيا". مجلة الرائد، مجلة شهرية ثقافية جامعة، الشارقة، العدد 164، أبريل 2011.

نهض منهم أشخاص يحسسون المجتمع بخطورة أفكار هذه الجماعة على المدى القريب والبعيد، ساعين للقضاء عليها وإعادة إحقاق المثل والفضائل الصحيحة.

لقد نجحت السفسطة في التأثير على المتلقي بعد أن فعلت فيه فعلتها من الاستمالة وغيرها، وهذا ما يبين في الظاهر أن الجماعة أعطت لهذا الطرف في العملية التواصلية قيمة كبيرة، سيما وأن طبيعة متلقيهم وطبقتهم لا تسمح لهم بفهم أكثر من هذا؛ لكن ما يخفى عليه أنها اتخذت منه عنصراً مستغلاً لتحقيق أهدافها وإحقاق مآربها، فاهتمامها به اهتمام زائف، وتركيزها عليه ماهو إلا طريقة لتحصد أفكارهم شعبية كبيرة، بحيث تطغى على المجتمع، فيصير الحكم لما غلب؛ وأن الخداع الذي توسلته ليس سوى طريقة مفروضة لتمير الأفكار المغلوطة والمفاهيم المموّهة، فلو أنها التزمت الصدق والشفافية في التخاطب لما أمكنها التأثير في الجمهور وإقناعه بما هو خطئ وزائف؛ ومن ثم فلا جرم أن البلاغة عندها ستتحو هذا المنحى "المخادع" وتقوم عليه؛ ليس نفياً لبلاغة الإقناع التي جاء بها فلاسفة اليونان، ولكن تعزيزاً لهدف "الإقناع" الذي كانوا يريدونه.

المراجع:

المراجع العربية:

1. أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج العمدة في الطبع، منتديات سور الأزبكية، ط1، 2006م.
2. أحمد الحوفي: فن الخطابة. دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الخامسة، القاهرة.
3. الأخضر جمعي: نظرية الشعر عند الفلاسفة الإسلاميين. ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، د ط، 1999م.
4. صابر الحباشنة: التداولية والحجاج مداخل ونصوص. صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الإصدار الأول 2008م.
5. عبدالله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي (بيروت)، وكلية الآداب والفنون والإنسانيات بتونس (منوبة)، ودار المعرفة للنشر (تونس)، ط2، 2007.
6. عبدالهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية. دار أوبا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية،

الكوفة، إشراف: الأستاذ الدكتور نعمة محمد إبراهيم، 2012م.
24. هدية جيلي: "ظاهرة الانزياح في سورة النمل" دراسة أسلوبية. بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في اللغويات، إشراف: أ.د رايح دوب، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية: 2006 - 2007م.

المواقع الإلكترونية:

1. <http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&c=2&a=2432>
2. <http://medelomari.perso.sfr.fr/madarat.htm>
3. http://www.alketaba.com/index.php?option=com_k2&view=item&id=1562:balaghetalmotakalem&Itemid=157
4. http://www.okamel.com/index.php?option=com_content&view=article&id=108&Itemid=152
5. http://www.minculture.gov.ma/index.php?option=com_content&view=article&id=1011:2010-03-08-12-35-14&catid=51:etude-et-essais&Itemid=153
6. <http://www.annabaa.org/nbanews/2010/09/269.htm>

18. هاشم أحمد العزام: "المغالطة بين البلاغة والمنطق". مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، م 15، ع 1، 2007م.

الرسائل الجامعية:

19. رشيدة كلاع: "الخيال والتخييل عند حازم القرطاجني بين النظرية والتطبيق". مذكرة ماجستير، إشراف: د. العلمي لراوي. قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية: 2004/2005م، ص 13_14.
20. عبدالله بن عبد الوهاب العمري: آراء أفلاطون في الشعر والخطابة. ماجستير بقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، إشراف: أ.د سعد أبو الرضا. كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1428.
21. عمر بلخير: معالم لدراسة تداولية وحجاجية للخطاب الصحافي والجزائري المكتوب ما بين 1989 و2000. أطروحة دكتوراه، إشراف: أ.د خولة طالب الإبراهيمي، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، 2005-2006م.
22. فهد بن محمد القرشي: المنطق الأرسطي، بحث مقدم سعادة الدكتور: محمود مزروعة. كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، دكتوراه العقيدة 1428 هـ.
23. نبأ عبدالستار جابر الربيعي: المنطق عند أبي البركات البغدادي دراسة تحليلية. رسالة ماجستير، قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة